(٧)

السيدة زينب بنت جحش - رضى الله عنها

لزواج النبى ﷺ من السيدة زينب بنت جحش - رضى الله تعالى عنها - سبب يباين كل الأسباب فى تزوجه من جميع أمهات المؤمنين، من سبق زواجهن منه زواجها ومن لحق زواجهن منه زواجها.

ومع ظهور هذا السبب ظهور الشمس فى رائعة النهار ومع بُعْدِهِ كل البعد عن مزاعم المبشرين والمستشرقين حول تعدد زوجات النبى، مع هذا كله فإن لهم حوله لغطاً وضجيجاً وصخباً عالياً لم يثيروه فى سواه من زيجاته كلها.

ومع سعة لغطهم حوله فإنهم مدينون كل الإدانة، حيث استعملوا فيه سلاحاً ذا حدين، كلا حديه طاعن لهم طعنات قاتلة، وفى نفس الوقت فإن براءة محمد - عليه السلام - ثابتة ثبوت الجبال.

ولابد من تمهيد نذكره فى إيجاز شديد، خلاصته: كان فى الجاهلية عادة استمر العمل بها فى صدر الإسلام، وهى أن الرجل

إذا تبنَّى غلاماً ألحقه بنسبه، ودعاه ابنه غافلاً اسم أبيه، ثم عامله معاملة ابنه من صلبه فيرث كل منهما الآخر إذا مات أحدهما قبل الآخر، كما يحرم على الابن «المتبنَّى» ما يحرم على الابن من الصلب من محارم الأب، وما يحرم من حليلات الأبناء على الآباء.

رسخت هذه العادة فى الحياة، حتى كانوا ينادون زيد بن حارثة مولى رسول الله بـ (زيد بن محمد) وترتب على هذه الظاهرة تحليل ما حرَّم الله وتحريم ما أحل.

وما كان الإسلام ليهادن هذا الخلل، وكان لابد من عمل قوى يحسم هذه الفوضى، ويرد الحق إلى نصابه، بلا ضرر ولا ضرار.

وكان ذلك العمل القوى الحاسم لابد أن يخرج من بيوتات النبى، ومن شخصه لا من شخص سواه.

فأعلم الله رسوله أن مولاه زيد بن حارثه ستسخره الحكمة الإلهية للتزوج من ابنة عمة النبى زينب بنت جحش ولابد من تنفيذ هذا الزواج، ثم إن شقاقاً سيدب بين الزوجين، يضطر معه زيد إلى تطليق زينب، وبعد تطليقها وانقضاء عدتها من زيد يتقدم النبى لزواجها، ليعلن للمؤمنين أن زوجات أبناء التبنى لا يحرمن على أبائهم حرمة أبناء الأصلاب.

وبذلك يقضى الإسلام على تلك العادة الجاهلة، فهذا هو رسول الإسلام يتزوج زينب، وقد كانت بالأمس زوجاً لزيد

مولاه، الذى كانوا يعتبرونه ابناً له كإبراهيم والقاسم وعبد الله وبعد معارضة من أولياء زينب تم الزواج من زيد تحت إلحاح النبى على إتمام ذلك الزواج، ثم دب الشقاق بين الزوجين، وكان زيد يذهب إلى رسول الله ويخبره بعزمه على تطليق زينب، فينهاه عن ذلك ويقول له: أمسك عليك زوجك، يقول هذا وهو يعلم أن الطلاق لابد من وقوعه، ولكنه خشى إذا وافقه على الطلاق أن يفهم الناس بعد زواجه هو منها - كما أعلمه ربه - خشى أن يفهموا أنه ما وافقه على الطلاق إلا لرغبته هو فى التزوج بها ثم كان ما ليس منه بد، فأمر الله رسوله بالتزوج من زينب وظهر للناس جميعاً أن أبناء التبنى ليسوا كأبناء الأصلاب فى تحريم زوجاتهم إذا طلقوهن أو ماتوا عنهن على آبائهم، وهكذا قضى الإسلام على ذلك الخلل فى الاعتقاد وفى تشريع مالم يأذن به بالله.

وقد سجلت سورة الأحزاب هذه الوقائع والمواقف الإسلامية والحكمة من هذه الظواهر فى موضعين منها:

فى الموضع الأول نعى هذه الظاهرة وشنَّع عليها، وفى هذا ورد قوله تعالى: ﴿مَا جعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِه وَمَا جعَلَ أَزْوَاجكُمُ اللاَّئى تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتكُمْ وَمَا جعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا

آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾

[الأحزاب: ٤، ٥].

فى هاتين الآيتين قرر الإسلام الآداب والتشريعات الآتية:

* الزوجات لا يكن أمهات إذا قال الزوج لزوجته: أنت علىَّ كظهر أمى، أى محرمة تحريماً أبديًا.

* الأبناء بالتبنى (الأدعياء) لا يكونون كأبناء الأصلاب فى النسب والتوارث، وتحريم أزواجهم على أوليائهم وتحريم بنات وزوجات أوليائهم عليهم.

* النهى عن نسبة «الدعى» إلى غير أبيه الذى هو من صلبه فإذا لم يُعْلم أبوه نودى بوصف الأخ فى الدين أو بوصف «المولى» فلا يقال له: يا ابنى، بل يا مولاى، ويا مولاتى.

* العَفْو عن اللغو غير المتعمد، والمؤاخذة على ما تعمدته القلوب، وقد مهد لذلك التنافر بين الزوجات والأمهات، والأدعياء والأبناء من الأصلاب بتنافر أن يكون الله قد جعل للرجل الواحد قلبين فى تجويفه الصدرى.

هذا تشريع عام فى النهى عن تلك المنكرات جاءت به السورة فى صدرها لأهميته.

أما الموضع الثانى فخاص بواقعة تزوُّج زيد بزينب ثم فراقهما، وتزوُّج النبى ﷺ منها، وبيان الحكمة من هذا التدبير الإلهى الحكيم، وفى ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ [الأحزاب: ٣٧]، قصت هذه الآية الواقعة بتمامها كما شرحناها من قبل ثم بينت الحكمة الإلهية من هذا التشريع الحكيم، وهى رفع الحرج عن المؤمنين فى علاقاتهم بأدعيائهم وإباحة التزوج من زوجاتهم إذا فارقوهن بموت أو طلاق.

وهنا نصل إلى السبب الذى ترتب عليه زواج محمد ﷺ، من السيدة زينب - رضى الله تعالى عنها - إنه سبب محصور فى التشريع الإلهى وجعل زواج النبى من زينب هو الأسوة الحسنة التى لا تعلوها أسوة؛ لأن محمدا - عليه السلام - رسول الله وإمام الدعاة إليه، ففعله موضع إجلال وتقدير عند المؤمنين.

وبهذا الزواج قضى الإسلام قضاءً فورياً وحاسماً على عادة بغيضة تأصلت فى المجتمع، وكان من الصعب القضاء عليها لو لم يدبر الله الأمر على النهج الذى قدمناه.

فليست الشهوة سبباً فيه، هذا محال محال، لكنَّ المبشرين

والمستشرقـين ومشايعيهم من اليهـود والملحدين تجاهلوا هذا كله، وهم يعلمون أنه الحق الذى لا مراء فيه، تجاهلوه تماماً لأنهم عثروا فى هذه الآية على عبـارتين صالحتين لـتحريف مـعناهما، وقلب المقصود منهما، فما هما هاتان العـبارتان؟ وماذا قال فيهما هؤلاء الجاحدون؟

أما العبارتان فهما:

* **(وتخفى فى نفسك ما الله مبديه).**

* **(وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه).**

أما ماذا قالوا فيهما؟ فإليك البيان:

قالوا: إن محمداً بعد أن زوج مولاه زيداً من ابنة عمته زينب، ذهب ليزورهما، فرأى زينب وراعه جـمالها، وقد حلت من قلبه ونفسه مـحل الإعجاب والفتنة، فراح يبث دواعى الشقـاق بينهما لـيـصلا إلى الطلاق، ثم يتـزوج هو بهـا، ولكن القرآن فـضحـه وكشف عما فى قلبه من وقوعه فى غرام زينب والافتتان بها.

فقد أخـفى حبه فى قلبه، ولكن الله أظهـره للناس حين قال: ﴿وتخفى فى نفسك ما الله مبديه﴾.

ثم لامه - يعنى لام الله محمداً ﷺ - عـلى خشيته من الناس وعدم خشيته من الله.

وفى هذا قال الله: ﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾،

هذه خلاصة أمينة لما قالوه ورددوه، وما يزالون يقولونه ويرددونه، ويخيل إليهم أنهم أصابوا محمداً فى مقتل أو أوقعوه فى ورطة يصعب التخلص منها.

نقد هذا الكلام:

هذا الكلام الذى قالوه أوهى من الوهم، وهو سهم موجه إليهم هم لا إلى محمد - عليه السلام - وإليك البيان مرة أخرى:

إدعاؤهم بأن محمداً رأى زينب فافتتن بها كذب صريح، لأنه ابن عمتها يعرفها منذ الصغر، ورآها قبل زواجها من زيد مئات المرات، وبخاصة قبل نزول آيات الحجاب فى السنة الخامسة من الهجرة، فلم يك يخفى عليه شئ من حسنها وجمالها يفاجأ به بعد زواجها من زيد، فما أكثر التزاور والاختلاط بين الأسر ذوات الأرحام، ولو كان لمحمد رغبة فيها لأسرع إلى خطبتها قبل أن يعرف زيد بن حارثة، بل وقبل أن يعرف أباه حارثة، وهذه المقولة مفتراة ليس لها أساس تاريخى صحيح، فهل كان قائلوها أحياءً فى ذلك العصر فقالوا ما رأوه هم بأبصارهم، أو سمعوه من زيد أو زينب بآذانهم؟

ثم لو فرضنا - جدلاً - أن هذا قد حدث، وأن محمداً أحب زينب لما رآه من جمالها، وأنه أخفى حبه إياها وطمعه فى التزوج منها، لو فرضنا جدلاً صحة هذه المزاعم فإن الخاسر الوحيد فيه

هم قائلوه من خصوم الإسلام، وذلك لأن حملات التشهير التى يشنونها على محمد ﷺ غرضهم الوحيد منها هو إسقاط الإسلام بسقوط محمد من جرَّاء حملاتهم عليه.

فلا رسالة ولا نبوة ولا قرآن، بل كل ذلك من افتراءات محمد - حاش لله - على زعمهم.

وهذا الذى قالوه يثبت عكس ما ادعوه:

لأن القرآن لو كان من عند محمد لما فضح نفسه بإفشاء أسراره التى يلام عليها.

ثم إن قولهم: إن الله فضح محمداً وعرَّاه، فإن معنى ذلك عندهم أنهم يؤمنون بأن القرآن وحى من عند الله، وبذلك نراهم يحكمون على أنفسهم بالكذب فى كل ما يقولون، لأن القرآن إما أن يكون من عند الله، وإما أن يكون من عند محمد، فأى الأمرين عندهم هو الصواب، وقد قالوا مرات: إن القرآن من تأليف محمد، وهنا يقولون إن القرآن من عند الله، وباعتبار تسليمهم بأن القرآن النازل من عند الله فضح محمداً وأفشى أسراره «الغرامية» فيلزمهم أن يعترفوا بصدق محمد وشجاعته وأمانته؛ لأنه بلَّغ القرآن للأمة وفيه ما فيه من إفشاء أسْراره التى يسوؤه إفشاؤها، ورجل فى هذه المكانة من الصدق والأمانة والشجاعة أرفع شأناً من أن يكون زير نساء..

* * *